ملخص موجز للتواصل والانظمة الرمزية

في معنى التواصل:

يشير فعل تواصل الى حدوث المشاركة في الفعل بين شخصين، و يكون نقيضها تنافر و تقاطع ويعني الوصال الرغبة في اقامة علاقة مع الاخر ذات مضمون عاطفي او نفسي. ويحدد **هانز فير** في معجمه الفروق بين **إتصل و تواصل**. فإتصل تعني وصل شيئا بشيء آخر احتكّ به (être connecté)، بينما تعني تواصل العلاقة المتبادلة بين طرفين.(être interconnecté). في الاتصال هناك رغبة من احد الطرفين باتجاه الاخر وهذا الاخر قد يستجيب ويتفاعل مع تلك الرغبة أو إنه قد يرفض وينغلق. أما في التواصل فإن الرغبة تحدث من كلا الطرفين .(راجع في هذا الشأن الموسوعة الفلسفية العربية ج1). وعلى هذا الأساس، فإن الظواهر الإنسانية في كلّيتها لا يمكن أن توجد خارج رغبة الكائن البشري في التواصل مع غيره بشكل مباشر أو غير مباشر. فمجموع ما ينتجه الإنسان عبر لغته وأشيائه وجسده وإيماءاته وطقوسه ومعماره، يندرج ضمن سيرورة تواصلية متعددة المظاهر والوجود والتجلي إلى الحد الذي يجعل الثقافة في كلّيتها سيرورة تواصلية دائمة. وتلك هي الحالة التي يصفها امبرتو إيكو : **"لا نتعرف إلى أنفسنا إلا باعتبارنا سيميائية في حركة وأنظمة من مدلولات و عمليات التواصل و الخارطة السيميائية وحدها هي التي تقول لنا من نكون و كيف نفكر".**

في تعريف الرمز والعلامة:

الرمز هو صورة الاحساس ومعناه، وهو تمثيل مكثف للشكل الخارجي، للشيء او تعبير عنه، فليس الرمز نسخة للواقع رغم احتوائه لمقومات الشكل الاساسية بل علامة او اشارة تحيل الى استحضار شيء غائب. فهو يؤسس علاقة مماثلة بين شيئين احدهما مرئي يشكل علامة محسوسة، و الثاني لامرئي وغير محسوس يعد موطن الدلالة التي يحملها الرمز، و يعمل الذهن على تمثلها. وكلمة symbole في اللاتينية اصلها اغريقي sumbolon، مشتقة من فعل sumbollein ويفيد "وَصَلَ - جَمَعَ- قَرَنَ" فالرمز في اصله الدلالي اللغوي العلامة، التي تجمع شيئين متباعدين يكوّنان وحدة واحدة فهي كما يعرفها **لالاند** LALANDE في معجمه "علامة تعارف تتكوّن من نصفين عندما نجمعهما نكوّن كلمة سر". و في التقليد الاغريقي، ان نتعارف من خلال قطعتي نقود منفصلتين او ميدالية او آنية، يكون جمعهما دليل تعارف شخصين، دائن ومدين او ضيف ومضيف وطرح هويته للأخر.

الانسان حيوان رامز: يذهب **"كاسيرار"** الى فهم الإنسان كجزء من الطبيعة، لذلك يتجاوز التعريفات التقليدية والكلاسيكية للإنسان، عبر الإقرار بأن الفرق بين الإنسان والحيوان ليس فرقا في الطبيعة وإنما هو فرق في الدرجة. فالإنسان هو حيوان أكثر تطورا من بقية الحيوانات، بل انه يتميز نوعيا عن الحيوان، وهذا التميز يكمن في امتلاكه "جهازا رمزيا". هذه "الاداة الجديدة التي يملكها الانسان وحده تحول الحياة الانسانية كلها." فعالم الحيوان كما وصفه البيولوجي **يوهان يوكسكل**، يتميز بامتلاكه جهازا مستقبلا وجهازا مؤثرا ينجز الكائن من خلالهما اتصاله بالعالم وبني جنسه، اما عالم الانسان فيزيد على ذلك بتملّكه جهازا رمزيا، يعطي وجود الانسان لا فقط عالما جديدا بل "بعدا جديدا من ابعاد الواقع".

- تجليات الرمز: أ) اللغة نظام رمزي:

تؤسس اللغة عالما رمزيا متميزا، يستحضر العالم ولكن لا يشبهه، فالكلمات ليست الأشياء، لذلك كانت اللغة نظاما رمزيا. والوظيفة الرمزية للغة تتمظهر في القدرة على استعمال العلامات كرموز، تمكننا من تمثل شيء آخر رغم غيابه. وبالتالي فإن اللغة كنسق من العلامات ليست لها علاقة مادية بما تعنيه هذه العلامات. و هذا الاختلاف عن الواقع يعطي اللغة نوعا من الاستقلالية عما هو كائن، وتسمح بالتالي للإنسان من الارتباط بالعالم و بالارتحال عنه.

"غوسدورف"، يعتبرها الوسيلة الجوهرية التي تمكّن الفرد من تمثل ثقافة المجموعة التي ينتمي إليها. فاللغة هي التي تمكن الإنسان من تجاوز كينونته البيولوجية، وهو ما يعني أن الوظيفة الأولى للغة هي التواصل بين الناس. فأن نتكلّم هو أن نتواصل، وفعل الكلام هو فعل تمرير المعلومات، لذلك فإن اللغة هي قبل كلّ شيء رابط اجتماعي، إذ هي منظومة اجتماعية تكوّن الإنسان ذاته، كشبكة للتبادل والمشاركة والتواصل بما هي حوار يقتضي إفساح المجال أمام الناس للتعارف المتبادل، كمقدّمة للفهم والتفاهم. لذلك يمثل الآخر طرفا أساسيا في فعل التواصل اللغوي، ففي هذا التواصل اللغوي، يحضر الآخر حتى عند غيابه، وحوار الذات مع ذاتها هو أبسط أشكال حضور هذا الآخر. وهذا يعني أن وعي الذات بذاتها يتحقّق عبر اللغة كنظام رمزي.

يذهب **اميل بنفنيست**، الى اعتبار اللغة ملكة التعبير الرمزي بامتياز و" كل انظمة التواصل الاخرى الخطية والحركية والبصرية ...تتفرع عنها وتفترضها مسبقا". ذلك ان العلامة اللغوية هي اصل الرموز الاخرى القديمة كلها، فالأسطورة والخرافة والحكاية وحتى الدين والفن هي مدونات كتبتها لغة، بل هي ذاتها لغة وان كانت خاصة .ثم ان العملية الذهنية المسماة تفكيرا ليست اكثر من تنظيم للغة .فاللغة حسب بنفنيست هي اداة الفكر.

يقول بنفنيست :"ان التحول الرمزي لعناصر الواقع او للتجربة الى مفاهيم هي العملية التي يتم بواسطتها اكتمال القدرة المعقلنة للفكر."

من جهة اخرى، فإن اللغة ابدعها الانسان للتواصل مع بني جنسه، وللتعبير عما يختلج فيه من احاسيس وعواطف وافكار، لذا اعتبر **دي سوسير** اللغة مؤسسة اجتماعية، وذهب بنفنيست الى ابعد من ذلك، حين اعتبر هذا التركيب الرمزي الذي نسميه اللسان، هو انشاء اجتماعي يتعلمه الطفل حين يتربى في حضن والديه. يقول **بنفنيست** :"إن اكتساب اللغة تجربة تسير بمحاذاة تشكل الرمز و إنشاء الموضوع لدى الطفل، إنه يتعلم الأشياء من خلال أسمائها، و يكتشف أن لكل شيء إسما، و أن تعلم الأسماء يمكنه من تدبرها، و لكنه يكتشف أيضا أن له هو ذاته اسما و أنه من ثمة يتواصل مع محيطه". وعليه لا يمكن تصور مجتمع من دون لغة، او لغة خارج السياق الاجتماعي، لأن الرمز هو بالضرورة انشاء اجتماعي، لذا اعتبر علماء الأنثروبولوجيا اللغة مكوّنا اساسيا لهوية جماعة ما، وما كان يمكن قيام ثقافة امة ما من دونها.

و في هذا المعنى اعطى السيميائي **رولان بارط**، شأنه شأن **غريماس** و **هلمسلف**، اللغة معاني أبعد من التعبير والتواصل الاجتماعي. بل اللغة دالة الثقافة وعلامة العلامات، التي نكتشفها في كل اشكال المعيش اليومي، وكل الرموز التي ينتجها الانسان من لباس وسلوك وقيم .ف"اللغة سلطة تشريعية اللسان قانونها.. فأي لهجة إنما تتعين بما ترغم على قوله أكثر مما تتعين بما تسمح بقوله" كما يقول **رولان بارط**، بحيث تمارس اللغة إكراها بنيويا يصعب معه التمييز، في عملية التواصل، بين المحتوى والشكل خاصة وأن كلّ وسيلة تقنية للتواصل، لها فعل ارتدادي على الرسالة التي تمرّرها. بل يبدو حسب **"ماك لوهان"** أن "الرسالة الحقيقية هي الوسيط ذاته". لذلك فإن تجديد وسائل الاتصال، بدءا بالكتابة إلى شبكة الأنترنت يؤثر نسقيا في الثقافة والفكر، ولذلك تحاول السيميائيات اليوم تحليل الوظائف الدلالية المتنوعة ل (الدين/الفن/السياسة/اللغة)، في علاقاتها بوسائل الاتصال والتواصل وما تحمله من أفكار تخص مجتمعا من المجتمعات. خاصة وأنّ نمط الحياة المعاصر يتسم بالتكالب على المصالح، و بتقديس التقنية ومنتجاتها في غير اكتراث بالبعد الثقافي والروحي للوجود الإنساني. والفعل الذي تولّده هذه الوسائط على الثقافة بصورة عامة.

ب) المقدس:

يحيل المقدس على الطهارة وانتفاء التدنيس، وهي خاصية السلوك الديني ، وهنا يتداخل الاسطوري بالديني بل ان المقدس يتجلى كذلك في السحري والطقوسي، بل في اشكال تعابير دنيا كالخرافة او الحكاية الشعبية. حيث يكون مضمونها دوما هو الخيال fiction والعجيب merveilleux، و الخارق fantaisie، والميثولوجي و اللامعقول irrationnel . يتجلى المقدس في صورة اله او قوة خارقة او كائن خرافي او عجيب لاواقعي او سحري، يثير الرعب والاجلال معا. وفي ذلك ما يشد اليه الاهتمام تلذذا ومتعة او انتظارا لعطاياه او استسلاما له خوفا من انتقامه. يقول **روجي كايوا** :" انما من المقدس ينتظر المؤمن كل ضروب العون وكل اشكال التوفيق، فالاجلال الذي يبعثه في نفسه هو مزيج من الرعب والثقة، وهو يعزو المصائب التي تتربص به فيكون ضحيتها كما .. الخيرات التي يحلم بها ". والمقدّس الديني هو قبل كلّ شيء تجربة، تنحو إلى أن تتجلى في صور و تمثلات رمزية. وقد بين **"مايير"** ان تجربة المقدّس هي ضرب روحاني من المعانقة للعالم. إنها حدس مؤسس لنوع من الحضور الغامض، لشيء يتجاوز الحدود المعتادة للتجربة الإنسانية. وهذا الشيء المغاير تماما للدنيوي يفلت من ظروف التجربة المدنسة. والمقدّس كرمز يسمح بالانفتاح على العالم المطلق، ذلك أن طقس ما يمكّن الإنسان من اكتشاف هذا العالم المطلق، الذي يفلت بالماهية من كلّ لغة، خاصة وأن الدين هو نسق يعبّر عن ذاته بواسطة طقوس تشغل الرمز والأسطورة.

وفي هذا المعنى، تكون الأسطورة لغة التعالي، و**"غارودي"** لا يتحدث عن التعالي باعتباره خارجيا أو قوة، فليس هو تعالي لرب فوقي ولا هو تعالي لمعطى تحتي، وهو ما يجعل من الأسطورة فعل خلق جماعي، لحظة عمل. فالأسطورة ليست مجرّد مشاركة في العالم بل هي لحظة عمل تميز الإنسان لذلك يرى "غارودي" أننا لا نستطيع أن ننعت بالأسطورة ما هو

مجرّد أثر باقي من الماضي، كما لا نستطيع أن نعتبر الأسطورة مجرّد إعادة إنتاج أو مجرّد محافظة على الحاضر باعتبارها معيارا للسلوك بل إن غارودي يقول بأن النماذج الاجتماعية المضاعفة بالدعاية والإشهار والتي تقدّم المشاهير باعتبارهم أساطير هي وهم واغتراب. وهذا يعني أن الأسطورة ليست من الماضي بل أن هناك أساطير ينتجها الإنسان اليوم.

ج)الصورة/المشهد-الفرجة:

الصورة هي إعادة إنتاج شيء بواسطة الرسم أو النحت أو غيرهما، كما يشيرا إلى أن الصورة الذهنية(Image mentale)تحيل على معنى التمثل(Répresentation) ، وهو تمثل تخييلي (imaginaire) ومنها (imagination) الخيال او التخيل. فالصورة رسم ذهني تخيلي لشيء يستوحى من الواقع فيعيد تمثله بشكل اخر.

فالصورة تتحدّد في معناها الأصلي، باعتبارها إعادة إنتاج طبق الأصل. والفلسفة كانت تستبعد الصورة بناء على التقليد الأفلاطوني الذي يستبعد العالم الحسي، ذلك أن الصورة والمفهوم يتقابلان راديكاليا. فالصورة في معناها الدقيق تمثل الشكل المحسوس لشيء خاص، والمفهوم هو الفكرة الكونية او ما يسميه افلاطون المثال (idée) ، ولذلك ارتبطت الصورة قديما بالعجائبي والمقدس دوما.

اذا اعتبرنا الصورة نظاما للتواصل، فإنها ستكون بذلك حسب **رولان بارط**، حاملة لتمثل اسطوري شأنها شأن الاسطورة او الكتابة، غير ان هذا الجمع بين الانظمة التواصلية يفسح بالنسبة اليه مجالا لكشف القدرة التأثيرية للأشكال التواصلية، اذ هي اشكال لها وظائف دالة ضمن نطاق الوضعية التي ترتبط بها داخل نسيج العلاقات بين الافراد والمجتمعات. اين تتكون علامات تجمع بين مفهوم وصورة او بين شكل ومعنى وتعبر عن نسق تواصلي، والصورة بالنسبة اليه لا تخلو من "الاكراه البنيوي" الذي يميز اللغة بل ان الصورة كما يقول **بارط** "آمرة اكثر من الكتابة "، بما انها تفرض الدلالة دون تحليل ودفعة واحدة. ف "الصورة تصبح كتابة في اللحظة التي فيها دالة" انها مثل الكتابة، تدعو الى "حكم القوة" ففي نظام الادراك لا تستدعي الصورة نفس نمط الوعي الذي تستدعيه الكتابة. ففي الصورة ذاتها ثمة ولاشك انماط من القراءة فالرسم مهيأ للدلالة اكثر من التصوير، والمحاكاة اكثر من الاصل، والكاريكاتير اكثر من الصور الذاتية".

غير ان **ديبور** ، يذهب الى ابعد من ذلك في تفكيك دالات الصورة نحو ربطها بالاجتماعي، حتى تتجلى الصورة ك "فرجة" او "مشهد" spectacle. فهذا التراكم الهائل للصور كبضاعة للاستهلاك، جعل **ديبور** يتحدث عن المجتمعات المعاصرة باعتبارها مجتمعات الفرجة، و تمثل الفرجة، عنده، رؤية كلية للحياة وهي أساسا ترسانة من الصور المؤثرة على المشاهد، ما من شأنه أن ينتج ما سماه ب"الاستبعاد المعمم"، الذي يمثل وجها من وجوه الاغتراب. اغتراب له قدرة تأثيرية بالغة، تستمدّ من الأساس الاقتصادي، بحيث تطوّع الصورة والكلمة لتشكيل الوعي الزائف. إنه تأثير يغري الجموع صنعه مخطط الاقتصاد الليبرالي، للتحكم في صفوف الناس وإبعادهم عن مشاغلهم الحقيقية عبر التشبه بسلوك المشاهير والنجوم، الذين يتصدرون الفرجات الاشهارية. وبقدر ما تعتمد الفرجة أنواعا من الصور الباهرة وأشكال الترفيه المغرية، يتحول الإنسان المستهلك للسلع إلى مستهلك للأوهام، والصورة التي كانت في الأصل تبلغ الدلالة وتحدث التواصل، تحوّلت إلى عنصر تأثير مفسد للتواصل الحقيقي ومعطّل للحوار بين الذوات.

حدود الانظمة الرمزية :

ان تحول الرمز الى نظام، يعطيه القوة على الفعل والتأثير، انه يصبح رأسمال رمزي شديد التأثير تمتلكه "سلطة رمزية" كما يسميها **بيار بورديو**، تخترق العلاقات الاساسية والمادية التي تربط الحاكم بالمحكوم، الباث والمتقبل. يقول بورديو :"هذه السلطة لا تعمل عملها الا اذا اعترف بها أي اذا لم يؤبه بها كقوة اعتباطية".

ولكن كيف تعمل هذه السلطة ؟ وما هي نتائجها على الوسيط والمتقبل؟

يجيب **بورديو** بأننا لسنا مخيرين في اعتماد واحد من نموذجين: النموذج الطاقي او النموذج السيبرنطيقي. الاول يعتمد براديغم ميكانيكي يفهم الحركة الاجتماعية للأفراد والمجموعات وما ينتجونه بما هو مولد لطاقة فعل يستغلها الحاكم او المتحكم بهذه الوسائط، والثاني يعتمد براديغم أداتي يعمل على توجيه السلوك والتحكم فيه نحو ما يخدم مشروعا ما،

(سياسي او اقتصادي او اجتماعي ...) ما يجعل الافراد كالكائنات الروبوتية امام الوسائط. (البروباغاندا السياسية – سبر الاراء-الاشهار ..).ما يجعل من هذه الوسائط "سلطة رمزية قادرة على التأثير الفعلي دون بذل للطاقة ".[1]

ويجيب **ديبراي** عن السؤال ذاته كيف تعمل السلطة؟ سلطة الرموز، بأن طبيعة الوسيط (النظام الرمزي بشكل عام) انه قابل للانعكاس، بما "يسمح للعقل ان يصبح قوة، وللقوة بأن تنشئ لها عقلا"، والكلام لديبراي مشكّلا "جانوس"JANUS [كائن خرافي عند الرومان هو إله البدايات عندهم بوجهين ملتصقين واحد ينظر للماضي والاخر للمستقبل]، شبيه بالتنين عند هوبز يمسك بيد سيفا و بالأخرى مرشة الماء المقدس. فعلاقة القوة والعقل تختصر اليوم في علاقة المثقف بالسلطة، او كما تريد السلطة للمثقف ان يكون. ففعل الهيمنة ذو حدين كما يرى **ديبراي**، لأن " التعميم والخصخصة، يصطدم كلاهما بأداة التحول المادي او الوسيط، فهو موضع صراع مرير بين الدولة والانتلجنسيا (المثقفون). لأن السلطة السياسية تؤثر من خلال الوسيط"، ودور الوسيط أنه يحوّل الفعل التواصلي (اي الفكر) الى عامل سياسي، و السلطة السياسية الى فكر هدفه وغايته المشتركة هي المحكومون. وهكذا فإن "الصور التي ترينا العالم – كما يقول ديبراي - هي ايضا ما يعمينا عن النظر اليه ".

اذن، فليست الرموز غاية في ذاتها بل في ما تنتجه من سلطة وقوة، وفي تحولها الى رأسمال رمزي او جهاز ايديولوجي ، يعمل على التحكم في الجماهير وتوجيههم الى ما يريده و يرضاه راس المال المادي .

الى ذلك ستتحول وسائل الاتصال الحديثة – خاصة مع ظهور مجتمعات الوفرة والاستهلاك ثم زمن العولمة – الى ما يشبه القيتوات ghetto (محتشدات او سجون مغلقة)، تعزل فيها الافراد ويتم اغراقهم في ايديولوجيا معممة، يتم التحكم بها عن بعد كما يكشف عن ذلك كل من فيلسوفا **مدرسة فرانكفورت النقدية تيودور ادورنو وماكس هوركهايمر**، (انظر النص في الكتاب المدرسي ازمة التواصل اليوم ص 114). ففي نقدهما للمجتمع المفتوح، مجتمع الرأسمالية المعاصرة بين فيلسوفا النقدية المعاصرة أن وسائل التواصل بقدر ما عملت على ربط الصلة بين الافراد في ما بينهم عن طريق وسائل الاتصال الحديثة، بقدر ما عزلتهم وأعمتهم بخطابات مضللة كاذبة، فأضحى التقدم يفرّق بين الناس" كما يقولان: "فالخطاب الكاذب لمذيع الراديو ينطبع في ادمغة الناس ويمنعهم من التحدث ودعاية البيبسي كولا تحجب الاخبار المتعلقة بانهيار قارات باسرها...ولم يعد يسمح زجاج المكاتب الحديدية (لمكاتب البريد او المحطات)للموظف بالثرثرة والمزاح مع زميله"، بل لم يعد الموظف قادرا على اضاعة الوقت "انهم منعزلون داخل الجماعة ".

كذلك فعلت السيارة الخاصة او التلفزيون اليوم للأسرة، اذ عمل على عزل افرادها بعضهم عن بعض تماما فلم يعد ثمة وقت للحوار او للجلسات الحميمية داخل العائلة. فتنكشف لنا مفارقة عجيبة لأنظمة التواصل الحديثة، يعبر عنها **ادورنو و هوركهايمر** بقولهم : "ان الاتصالات تحقق التماثل بين الناس وذلك بعزلهم ".

وغير بعيد عن ذلك ما يذهب اليه **بودريارد**، من ان "كل الوسائط تمثل رسائل تخضع المشاهد للإكراه والقصر، فالإنسان المعاصر محكوم بنظام علامات تمثل بدائل عن الواقع"، ذلك ان المضمون يحجب عنا في معظم الاحيان الوظيفة الحقيقية للوسيط ، فهو يقدم نفسه كرسالة " وفي الاخير يكون "استهلاك الرسالة هو ذاته الرسالة " .

يقول **بودريارد** "رسالة التلفزة كما ليست ما تنقله من صور بل ما تفرضه من انماط جديدة من العلاقات والادراكات" . انها رسالة تمجيد المضمون، بوصفه علامة ، فنسقط هكذا في عبودية جديدة، وشكل اخر للاغتراب يكون الانسان فيه هو ذاته الاداة والمشروع، ويصبح مجتمع المشهد هو ذاته الصنم .

[1] يسميها الفيلسوف الفرنسي لويس التوسير الاجهزة الايديولوجية للدولة على نقيض الاجهزة المادية القمعية و هي تصنع قمعا اشد وطأة من الاجهزة المادية.